مواقف وبطولات

من ١٠ : ١٤ سنة

عَيْنُ جَالُوتَ

إنقاذُ الحضَارةِ الإنْسَانيةِ

كتبها
أحمد تمام

رسمها
محمد نبيل

شركة سفير

تمام ، أحمد

معارك فاصلة «عين جالوت» / أحمد تمام

١٢ ص، ٢٣ × ٢٣ سم

١- معارك فاصلة «عين جالوت»

٢- الأطفال - تعليم

أ- تمام ، أحمد ب- العنوان

ديوى/ ٩٥٣

جميع الحقوق محفوظة لشركة **سفير**

رقم الإيداع: ١٣٩٦٢ / ٢٠٠٤

الترقيم الدولى: ISBN: 977 - 361 - 288 - 0

وَصَلَتْ رُسُلُ «هُولاكُو» إلَى القَاهِرَةِ، وَالنَّاسُ فِى خَوْفٍ وَهَلَعٍ، وَالحِكَايَاتُ التِى يتَنَاقلونها عَنْ فَظَائِعِ المَغُولِ تُثِيرُ الفَزَعَ فِى القُلُوبِ، وَالفَارُّون مِنْ أَمَامِهِم يَمْلَئُونَ القَاهِرَةَ، يَرْوُونَ للنَّاسِ حِكَايَاتٍ لا تَنْتَهِى عَنِ المَغُولِ وَقُوَّتِهِم .. بَعْضُهَا حَقِيقِىٌّ وَبَعْضُهَا الآخَرُ نَسَجَهُ خَيَالٌ خَائِفٌ، وَنَفْسٌ مَهْزُومَةٌ، وَقَلْبٌ مُرْتَعِدٌ.

وَكَانَ المَغُولُ قَدِ اسْتَطَاعُوا فِى سَنَوَاتٍ مَعْدُودَةٍ أَنْ يَسْتَوْلَوا عَلَى مُعْظَمِ أَقْطَارِ العَالَمِ الإِسْلامِىِّ وَالْتَهَمُوا دُولَهُ وَاحِدَةً بَعْدَ أُخْرَى فِى سُرْعَةٍ عَجِيبَةٍ وَانْهِيَارٍ مُفَاجِئٍ، وَكُلَّمَا حَلُّوا بِبَلَدٍ ارْتَكَبُوا فِيهِ مَذَابِحَ فَظِيعَةً، وَنَشَرُوا فِيهِ الخَرَابَ والدَّمَارَ كَأَنَّهُمْ إِعْصَارٌ مُدَمِّرٌ لا يَقِفُ فِى وَجْهِهِ شَىْءٌ، فَسَقَطَتْ فِى أَيْدِيهِم «بُخَارَى» وَ«سَمَرْقَنْدُ» وَ«بَغْدَادُ» وَ«حَلَبُ».

وَبَعْدَ سُقُوطِ «دِمَشْقَ» أَخَذَ «المَغُولُ» يُغِيرُونَ عَلَى مُدُنِ «فِلَسْطِينَ»، فَهَاجَمَتْ كَتَائِبُهُمُ «الخَلِيلَ» وَ«الكَرَكَ» وَ«غَزَّةَ»، وَلَمْ تَكُنْ هُنَاكَ قُوَّةٌ تَرْدَعُهُمْ وَتَقِفُ فِى طَرِيقِهِمْ، وَانْتَظَرَ النَّاسُ أَنْ تَلْقَى «القَاهِرَةُ» المَصِيرَ الذِى أَصَابَ «بَغْدَادَ» وَ«دِمَشْقَ».

وَلَمْ يُضَيِّعْ «هُولاكُو» قَائِدَ المَغُولِ وَقْتَه، فَقَبْلَ أَنْ يُغَادِرَ «الشَّامَ» إِلَى بِلادِهِ، بَعَثَ بِرِسَالَةٍ إِلَى «قُطُزَ» سُلْطَانِ «مِصْرَ»، تَحْمِلُ التَّهْدِيدَ وَالوَعِيدَ، وَتَدْعُوهُ إِلَى الرُّكُوعِ والاسْتِسْلامِ، لأَنَّهُ لا فَائِدَةَ مِنَ المُقَاوَمَةِ وَلا جَدْوَى مِنَ الدِّفاعِ.

وَدَخَلَ الرُّسُلُ عَلَى «قُطُزَ» يَمْشُونَ فِى كِبْرٍ وَخُيَلاءٍ، وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ فِى اسْتِهَانَةٍ وَاسْتِخْفَافٍ، فَاسْتَقْبَلَهُمْ فِى وَقَارٍ وَمَهَابَةٍ، وَطَلَبَ مِنْ أَحَدِهِمْ أَنْ يَقْرَأَ رِسَالَةَ سَيِّدِهِ، فَقَامَ أَحَدُهُمْ وَقَرَأَ الرِّسَالَةَ :

«مِنْ مَلِكِ المُلُوكِ شَرْقًا وَغَرْبًا القَانِ الأَعْظَمِ .. يَعْلَمُ المَلِكُ المُظَفَّرُ «قُطُزُ» وَسَائِرُ أُمَرَاءِ دَوْلَتِهِ

وَأَهْلُ المَمْلَكَةِ المِصْرِيَّةِ أَنَّا نَحْنُ جُنْدُ اللَّهِ فِى أَرْضِهِ، سَلَّطَنَا عَلَى مَنْ حَلَّ بِهِ غَضَبُهُ، فَاتَّعِظُوا بِغَيْرِكُمْ، وَأَسْلِمُوا إِلَيْنَا أَمْرَكُمْ .. فَنَحْنُ لا نَرْحَمُ مَنْ بَكَى وَلا نَرِقُّ لِمَنْ شَكَا .. قُلُوبُنَا كَالجِبَالِ وَعَدَدُنَا كَالرِّمَالِ، وَلا تُهْلِكُوا أَنْفُسَكُمْ بِأَيْدِيكُمْ فَقَدْ حَذَّرَ مَنْ أَنْذَرَ ..

وَبَعْدَ انْصِرَافِ الرُّسُلِ عَقَدَ «قُطُزُ» مَجْلِسًا لِلأُمَرَاءِ وَكِبَارِ القَادَةِ لِلنَّظَرِ فِى أَمْرِ الرِّسَالَةِ، وَطَلَبَ مِنْهُم الرَّأْىَ وَالمَشُورَةَ فَتَقَدَّمَ أَحَدُ الأُمَرَاءِ وَقَالَ :

«إِنَّ قُوَّةَ الجَيْشِ المَغُولِىِّ لا تَحْتَاجُ إِلَى شَرْحٍ وَبَيَانٍ، وَشُهْرَةُ «هُولاكُو» وَبَرَاعَتُهُ فِى القِتَالِ يَعْرِفُهَا النَّاسُ جَمِيعًا، وَلَوْ طَلَبْنَا الأَمَانَ لَمَا كَانَ فِى ذَلِكَ عَيْبٌ أَوْ عَارٌ، لَكِنَّ «هُولاكُو» لا يُطْمَأَنُّ إِلَيْهِ، فَهُوَ رَجُلٌ لا يَفِى بِالأَيْمَانِ وَلا يَحْتَرِمُ العُهُودَ وَالمَوَاثِيقَ».

قَالَ «قُطُزُ» :

– «لَيْسَ أَمَامَنَا إِلا وَاحِدَةٌ مِنْ ثَلاثٍ، إِمَّا الصُّلْحِ وَطَلَبِ الأَمَانِ مِن «هُولاكُو» وَهَذَا غَيْرُ مَضْمُونٍ، وَإِمَّا الدُّخُولُ فِى قِتَالٍ مَعَهُ، وَإِمَّا الانْسِحَابِ مِنْ «مِصْرَ» إِلَى «المَغْرِبِ»، وَهَذِهِ بِلادٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَهَا مَسَافَاتٌ بَعِيدَةٌ».

– قَالَ آخَرُ : يَا سَيِّدِى السُّلْطَانُ لَيْسَ هُنَاكَ مَصْلَحَةٌ فِى مُصَالَحَتِهِم لأَنَّهُ لا يُوثَقُ بِعُهُودِهِم.

وَبَعْدَ مُنَاقَشَاتٍ طَوِيلَةٍ قَالُوا لِلسُّلْطَانِ : «لَيْسَ لَنَا قُدْرَةٌ عَلَى مُقَاوَمَةِ المَغُولِ، والأَمْرُ مَا تَرَاهُ».

قَالَ «قُطُزُ» :

– «الرَّأْىُ عِنْدِى أَنْ نَخْرُجَ جَمِيعًا لِقِتَالِ العَدُوِّ، فَإِنْ نَصَرَنَا اللَّهُ نَكُونُ قَدْ حَقَّقْنَا هَدَفَنَا، وَإِنْ هُزِمْنَا فِى المَعْرَكَةِ فَلَنْ يَلُومَنَا أَحَدٌ، وَنَكُونَ قَدْ أَدَّيْنَا الوَاجِبَ، فَوَافَقَ الحَاضِرُونَ».

وَانْفَضَّ الاجْتِمَاعُ عَلَى الاتِّفَاقِ عَلَى هَذَا الرَّأْىِ، وَنَادَى المُنَادِى فِى «القَاهِرَةِ» وَسَائِرِ أَنْحَاءِ «مِصْرَ» بِالخُرُوجِ إِلَى الجِهَادِ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَنُصْرَةِ دِينِهِ.

وَاحْتَاجَ «قُطُزُ» إِلَى أَمْوَالٍ كَثِيرَةٍ لإِنْفَاقِهَا عَلَى تَجْهِيزِ الجُنْدِ وَشِرَاءِ الأَسْلِحَةِ وَتَدْرِيبِ المُتَطَوِّعِينَ، وَلَمْ تَكُنْ بِخَزِينَةِ البِلادِ مَا يَكْفِي لِهَذِهِ الاحْتِيَاجَاتِ، فَأَرَادَ «قُطُز» أَنْ يَفْرِضَ ضَرَائِبَ جَدِيدَةً عَلَى أَهَالِي «مِصْرَ».

غَيْرَ أَنَّ هَذَا التَّصَرُّفَ مِنْ جَانِبِ السُّلْطَانِ لَقِيَ مُعَارَضَةً شَدِيدَةً مِنَ الشَّيْخِ «العِزِّ بْنِ عَبْدِ السَّلامِ»، وَكَانَ مِنْ أَكْبَرِ عُلَمَاءِ عَصْرِهِ، وَأَكْثَرِهِمْ جَرَأَةً فِي الحَقِّ، وَقَالَ لِلسُّلْطَانِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الأُمَرَاءِ: إِذَا لَمْ يَبْقَ شَيْءٌ فِي بَيْتِ المَالِ، وَأَنْفَقْتُمْ مَا تَمْلِكُونَ فِي خَزَائِنِكُمْ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ، وَسَاوَيْتُمْ عَامَّةَ النَّاسِ فِي مَلابِسِهِمْ، وَلَمْ يَبْقَ مَعَكُمْ سِوَى آلاتِ الحَرْبِ، جَازَ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا شَيْئًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ لِلإِنْفَاقِ عَلَى الجِهَادِ.

وَمَا كَانَ مِنَ السُّلْطَانِ إِلا أَنِ امْتَثَلَ لِرَأْيِ الشَّيْخِ «العِزِّ ابْنِ عَبْدِ السَّلامِ»، فَلَمْ يَبْدَأْ فِي جَمْعِ الأَمْوَالِ مِنَ النَّاسِ إِلا بَعْدَ أَنْ أَحْضَرَ هُوَ وَالأُمَرَاءُ مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الأَمْوَالِ وَوَضَعُوهُ بَيْنَ يَدَيِ الشَّيْخِ «العِزِّ بْنِ عَبْدِ السَّلامِ».

كَانَتِ الاسْتِعْدَادَاتُ لِلخُرُوجِ إِلَى قِتَالِ المَغُولِ تَجْرِي عَلَى مَا يُرَامُ،

السُّلْطَانُ يَتَابِعُ بِنَفْسِهِ كُلَّ خُطْوَةٍ، وَبَدَأَ الجُنُودُ يَتَوَافَدُونَ عَلَى «الصَّالِحِيَّةِ» بِالقُرْبِ مِنَ الإِسْمَاعِيلِيَّةِ وَيَتَجَمَّعُونَ عِنْدَهَا انْتِظَارًا لِلسَّيْرِ إِلَى مُلَاقَاةِ العَدُوِّ، ثُمَّ تَقَدَّمَتْ طَلَائِعُ الجَيْشِ المِصْرِيِّ بِقِيَادَةِ «بِيبَرْسَ البُنْدُقْدَارِي» - وَكَانَ السَّاعِدُ الأَيْمَنُ لِلسُّلْطَانِ- إِلَى «فِلَسْطِينَ»، وَعِنْدَمَا وَصَلَتِ إِلَى «غَزَّةَ» اشْتَبَكَتْ مَعَ القُوَاتِ المَغُولِيَةِ بِقِيَادَةِ «بَايْدَرَ» وَكَانَتْ تَحْتَلُّ «غَزَّةَ»، وَأَلْحَقَ بِهَا هَزِيمَةً كَانَتْ ذَاتَ أَثَرٍ عَظِيمٍ فِي نُفُوسِ الجُنْدِ، إِذْ أَدْخَلَتِ الثِّقَةَ فِي نُفُوسِهِمْ، وَأَزَالَتِ الرَّهْبَةَ مِنْ لِقَاءِ «المَغُولِ».

وَانْتَظَرَ «بِيبَرْسُ» حَتَّى وَصَلَتْ قُوَّاتُ الجَيْشِ الرَّئِيسِيِّ إِلَى «غَزَّةَ» بِقِيَادَةِ السُّلْطَانِ «قُطُزَ»، فَأَقَامَ بِهَا يَوْمًا وَاحِدًا، ثُمَّ تَحَرَّكَتْ قُوَّاتُهُ عَنْ طَرِيقِ سَاحِلِ البَحْرِ المُتَوَسِّطِ إِلَى مَدِينَةِ «عَكَّا» وَعَسْكَرَ فِي الحَدَائِقِ الوَاقِعَةِ خَارِجَهَا عِدَّةَ أَيَّامٍ.

وَفِي أَثْنَاءِ تَوَاجُدِهِ بِهَا عَقَدَ «قُطُزُ» مَجْلِسًا لِلْحَرْبِ حَضَرَهُ كِبَارُ القَادَةِ لِرَسْمِ خُطَّةِ المَعْرَكَةِ وَدَوْرِ كُلِّ وَاحِدٍ فِيهَا،

وَحَثَّهُم عَلَى تَخْلِيصِ «الشَّامِ» مِنَ «المَغُولِ»، وَنُصْرَةِ الإِسْلامِ وَالمُسْلِمِينَ، وَخَوَّفَهُمْ عُقُوبَةَ اللَّهِ إِذَا هُمْ تَقَاعَسُوا عَنِ الجِهَادِ .. وَكَانَتْ كَلِمَاتُهُ صَادِقَةً وَبَلِيغَةً، فَشَقَّتْ طَرِيقَهَا إِلَى قُلُوبِ القَادَةِ، فَسَالَ البُكَاءُ مِنْ عُيُونِهِم تَأَثُّرًا بِكَلِمَةِ «قُطُزَ»، وَتَحَالَفُوا عَلَى الجِهَادِ حَتَّى آخِرِ رَمَقٍ مِنْ حَيَاتِهِمْ.

كَانَتِ «الشَّامُ» كُلُّهَا آنَذَاكَ فِي قَبْضَةِ «المَغُولِ»، وَكَانَ «هُولاكُو» قَدْ غَادَرَ «الشَّامَ» وَتَرَكَ قَائِدَهُ «كَتْبُغَا» يُوَاصِلُ تَنْفِيذَ خُطَّتِهِ فِي الاسْتِيلاءِ عَلَى «مِصْرَ» وَ«فِلَسْطِينَ». فَلَمَّا عَلِمَ «كَتْبُغَا» بِهَزِيمَةِ «بَايْدَر» فِي «غَزَّةَ» ثَارَ ثَوْرَةً عَارِمَةً، وَتَوَعَّدَ بِالانْتِقَامِ مِنَ المُسْلِمِينَ عَلَى يَدِ جَيْشِهِ الذِي لا يُقْهَرُ، وَبَدَأَ فِي جَمْعِ قُوَّاتِهِ - وَكَانَتْ قَدْ تَفَرَّقَتْ بِبِلادِ الشَّامِ- فِي جَيْشٍ وَاحِدٍ تَحْتَ قِيَادَتِهِ، وَعَقَدَ مَجْلِسًا لِلْحَرْبِ حَضَرَهُ كِبَارُ قَادَةِ الجَيْشِ، وَطَلَبَ مِنْهُمُ الرَّأْيَ وَالمَشُورَةَ، وَقَالَ لَهُمْ:

- «إِنَّ «قُطُزَ» سُلْطَانَ «مِصْرَ» يَتَحَدَّانِي، وَخَرَجَ بِجَيْشِهِ لا يَهَابُ جُنُودِي، وَيَرْغَبُ فِي مُلاقَاتِي دُونَ خَوْفٍ أَوْ فَزَعٍ .. لَقَدْ تَجَاوَزَ الحَدَّ، وَلا بُدَّ مِنْ تَلْقِينِهِ دَرْسًا لا يَنْسَاهُ يَكُونُ عِبْرَةً لِغَيْرِهِ.

وَلَما انْتَهَى «كَتْبُغَا» مِنْ كَلامِهِ قَالَ أَحَدُ القَادَةِ :

– «إنَّ المُسْلِمِينَ اسْتَعَدُّوا جَيِّدًا لِلْقِتَالِ هَذِهِ المَرَّةِ، وَحَشَدُوا أَفْضَلَ عَسَاكِرِهِمْ.

قَالَ آخَرُ : «إنَّ «قُطُزَ» يُبَادِرُ بِالهُجُومِ، وَلَمْ يَنْتَظِرْ قُدُومَنَا إلَيْهِ.. وَهَذَا شَيْءٌ لَمْ نَعْهَدْهُ مِنْ قَبْلُ فِى حُرُوبِنَا مَعَ المُسْلِمِينَ.. وَهَذَا مَا يُثِيرُ مَخَاوِفِى».

وَقَالَ ثَالِثٌ : «أَرَى أَنْ نُؤَخِّرَ الالْتِحَامَ بِقُوَّاتِ المُسْلِمِينَ حَتَّى يَأْتِيَنَا المَدَدُ مِنْ «هُولاكُو» حَتَّى نَضْمَنَ النَّصْرَ، وَنَقْضِىَ تَمَامًا عَلَى قُوَّاتِ المُسْلِمِينَ، وَيَطِيبَ لَنَا العَيْشُ فِى هَذِهِ البِلادِ وَنَنْعَمَ بِخَيْرَاتِهَا».

وَلَمَّا انْتَهَى الحَاضِرُونَ مِنْ إبْدَاءِ آرَائِهِم قَالَ لَهُمْ «كَتْبُغَا» :

– «بِئْسَ الرَّأْىُ مَا قُلْتُمْ إنَّنَا لَمْ نُهْزَمْ فِى مَعْرَكَةٍ حَتَّى نُقِيمَ وَزْنًا «لِقُطُزَ» وَمَنْ مَعَهُ، أَلَمْ تَسْقُطْ فِى أَيْدِينَا «بَغْدَادَ» عَاصِمَةَ الخِلافَةِ؟، أَلَمْ يُصْبِحِ «الشَّامُ» كُلُّهُ تَحْتَ أَقْدَامِنَا؟، أَلَمْ يَتَسَابَقِ النَّاسُ لِنَيْلِ رِضَانَا .. نَحْنُ الجَيْشُ الذِى لا يُقْهَرُ، وَسَنَتَقَدَّمُ لِلْقَضَاءِ عَلَى آخِرِ قُوَّةٍ لِلْمُسْلِمِينَ، وَسَنَكُونُ سَادَةَ العَالَمِ وَالقُوَّةَ الأَعْظَمَ فِى الدُّنْيَا كُلِّهَا.

وَقَبْلَ أَنْ يَنْفَضَّ الاجْتِمَاعُ أَمَرَ رِجَالَهُ بِالإسْرَاعِ لِمُلاقَاةِ جَيْشِ المُسْلِمِينَ الذى

كَانَتْ طَلَائِعُهُ قَدْ تَقَدَّمَتْ حَتَّى وَصَلَتْ إِلَى «عَيْنِ جَالُوتَ» بَيْنَ «بِيسَانَ» و«نَابُلُسَ» مِنْ أَرْضِ «فِلَسْطِينَ».

كَانَتِ السَّاعَاتُ القَلِيلَةُ التِى سَبَقَتِ المَعْرَكَةَ حَاسِمَةً، المُسْلِمُونَ أَتَمُّوا اسْتِعْدَادَاتِهِمُ العَسْكَرِيَّةَ، وَتَوَافَدَ عَلَيْهِمُ المُتَطَوِّعُونَ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ لِلْمُشَارَكَةِ فِى الجِهَادِ، وَقَامَ السُّلْطَانُ «قُطُزُ» بِالاطْمِئْنَانِ عَلَى خُطَّةِ المَعْرَكَةِ وَمَهَامِّ كُلِّ قَائِدٍ مِنْ قُوَّادِهِ، وَكَانَ شَهْرُ «رَمَضَانَ» قَدْ أَظَلَّ «المُسْلِمِينَ» بِنَفَحَاتِهِ المُبَارَكَةِ، وَأَحْيَا الصِّيَامُ فِى نُفُوسِهِمْ ذِكْرَيَاتٍ عَزِيزَةً لِانْتِصَارَاتِ المُسْلِمِينَ فِى غَزْوَةِ «بَدْرٍ» وَفَتْحِ «مَكَّةَ»، فَعَلَتْ هِمَّةُ النُّفُوسِ المؤْمِنَةِ، وَاسْتَوْثَقَتْ بِنَصْرِ اللَّهِ، وَمَحَتْ مَا فِى القُلُوبِ مِنْ رَهْبَةٍ فِى لِقَاءِ «المَغُولِ»، بَعْدَ أَنْ ظَنَّ النَّاسُ أَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يُهْزَمُونَ.

وَلَمَّا أَشْرَقَ صَبَاحُ يَوْمِ الجُمُعَةِ الخَامِسِ وَالعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ «رَمَضَانَ» سَنَةَ (٦٥٨هـ= ١٢٥٩م) تَحَرَّكَتْ قُوَّاتُ المُسْلِمِينَ مُتَّجِهَةً إِلَى الوَادِي كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ، تَعْلُو صَيْحَاتُهُمْ بِالتَّكْبِيرِ الذِي يَهُزُّ أَرْجَاءَ الوَادِي، يَتَقَدَّمُونَ فِي كَتَائِبَ مُنْتَظِمَةٍ عَلَى دَقَّاتِ الطُّبُولِ العَالِيَةِ التِي تَصُمُّ الآذَانَ، وَيَتَّجِهُونَ إِلَى المَغُولِ الذِينَ كَانُوا يَنْتَظِرُونَ المُسْلِمِينَ فِي كِبْرِيَاءٍ وَغُرُورٍ، مُطْمَئِنِّينَ إِلَى تَحْقِيقِ النَّصْرِ فِي سَاعَاتٍ مَعْدُودَةٍ، وَتَنْطِقُ وُجُوهُهُمْ بِالغَضَبِ المُحْرِقِ، وَيَقِفُ قَائِدُهُمْ «كَتْبُغَا» فِي ثِقَةٍ مُفْرِطَةٍ مُطْمَئِنًّا، تُمَنِّيهِ نَفْسُهُ أَنَّ الوَادِي سَيَمْتَلِئُ بِجُثَثِ المُسْلِمِينَ، وَسَيَتَحَدَّثُ العَالَمُ عَنْ هَزِيمَةٍ هَائِلَةٍ لَهُمْ لا تَقِلُّ بَشَاعَةً عَنْ سُقُوطِ «بَغْدَادَ» فِي أَيْدِيهِمْ مُنْذُ عَامَيْنِ.

وَلَمَّا اقْتَرَبَتْ طَلَائِعُ المُسْلِمِينَ مِنْ جَيْشِ المَغُولِ أَعْطَى «كَتْبُغَا» أَوَامِرَهُ بِالهُجُومِ المُضَادِّ، فَاجْتَاحَتِ الجَنَاحَ الأَيْسَرَ لِجَيْشِ المُسْلِمِينَ، وَتَمَكَّنَتْ مِنْ خَلْخَلَتِهِ وَتَشْتِيتِهِ، وَلَمَّا رَأَى السُّلْطَانُ «قُطُزُ» مَا حَدَثَ أَلْقَى بِخَوْذَتِهِ عَنْ رَأْسِهِ إِلَى الأَرْضِ، وَصَاحَ صَيْحَةً مُدَوِّيَةً «وَاإِسْلَامَاهُ» فَرَدَّدَهَا مَنْ حَوْلَهُ، ثُمَّ رَدَّدَهَا الجَيْشُ كُلُّهُ، وَرَدَّدَ صَدَاهَا الوَادِي كُلُّهُ، فَعَادَ المُسْلِمُونَ إِلَى ثَبَاتِهِمْ، وَأَثَارَتِ الكَلِمَةُ الحَمِيَّةَ فِي قُلُوبِهِمْ، وَأَشْعَلَتِ الحَمَاسَ فِي صُدُورِهِمْ، فَانْقَضُّوا عَلَى المَغُولِ يَضْرِبُونَ وَيَقْتُلُونَ.

ثُمَّ فَاجَأَ المُسْلِمُونَ المَغُولَ بِقُوَّاتِهِمُ الرَّئِيسِيَّةِ التِى أَخْفَاهَا السُّلْطَانُ «قُطُزُ» بَيْنَ التِّلالِ وَالأَحْرَاشِ القَرِيبَةِ مِنْ «عَيْنِ جَالُوتَ» اسْتِعْدَادًا للانْقِضَاضِ عَلَى المَغُولِ فِى اللَّحْظَةِ الحَاسِمَةِ، وَمَا هِىَ إلا لَحَظَاتٌ حَتَّى شَعَرَ المَغُولُ بِأَنَّ الأَرْضَ تَتَزَلْزَلُ مِنْ تَحْتِ أَقْدَامِهِمْ، وَأَنَّ السَّمَاءَ تُسْقِطُ عَلَيْهِمْ جُنُودًا كَاسِرَةً، كَانَتْ مُخْتَبِئَةً هَبَطَتْ عَلَيْهِم مِن الهِضَابِ القَرِيبَةِ وَلَمْ يَجِدُوا سِوَى الفِرَارِ والنَّجَاةِ بِحَيَاتِهِمْ، وَالبَحْثِ عَنْ مَلْجَأٍ يَحْمِيهِم وَمُغَادَرَةِ أَرْضِ المَعْرَكَةِ، بَعْدَ أَنْ شَاهَدُوا قَائِدَهُمْ «كَتْبُغَا» يَسْقُطُ صَرِيعًا فِى المَيْدَانِ.

كَانَتِ الهَزِيمَةُ قَاسِيَةً، وَرَأَى المُسْلِمُونَ المَغُولَ يَفِرُّونَ مِنْ أَمَامِهِمْ لأَوَّلِ مَرَّةٍ، غَيْرَ أَنَّ السُّلْطَانَ «قُطُزَ» لَمْ يَكْتَفِ بِهَذَا النَّصْرِ العَظِيمِ، بَلْ تَتَبَّعَ فُلُولَهُمْ وَأَرَادَ أَنْ يَقْطَعَ دَابِرَ المَغُولِ وَيَقْضِىَ عَلَيْهِم.

وَبَعْدَ أَنْ تَمَّ النَّصْرُ نَزَلَ السُّلْطَانُ «قُطُزُ» عَنْ فَرَسِهِ، وَمَرَّغَ وَجْهَهُ عَلَى أَرْضِ المَعْرَكَةِ تَوَاضُعًا، وَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ شُكْرًا لِلَّهِ تَعَالَى، ثُمَّ عَادَ إِلَى حِصَانِهِ وَحَوْلَهُ قَادَةُ جَيْشِهِ وَجُنُودُهُ الذِينَ امْتَلأَتْ أَيْدِيهِم بِالغَنَائِمِ، وَاتَّجَهُوا جَمِيعًا إِلَى «دِمَشْقَ»، تَسْبِقُهُ البِشَارَةُ بِهَذَا النَّصْرِ العَظِيمِ الذِى أَدْخَلَ الفَرَحَ وَالسُّرُورَ إِلَى قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ، وَخَرَجَ المَغُولُ مِنَ الشَّامِ، وَعَادَ الأَمْنُ والسَّلامُ إِلَى رُبُوعِ البِلادِ.